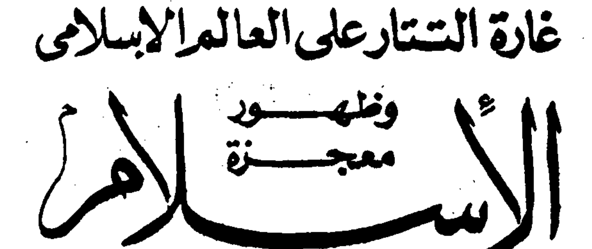
أبو الحسن الندوى



المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٧٠٧ ـ القاهرة



الطبعة الثانية
١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

غارة التتار واسبابها الحقيقية فى ضوء القرآن :

واجه العالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى كارثة يندر نظيرها فى تاريخ العالم ، وكادت تقضى هذه الكارثة على شخصية العالم الاسلامى ، وهو زحف الوحوش التتار الذين تقدموا نحو الشرق كجراد منتشر ، وسيطروا على العالم الاسلامى كله .

والمعروف أن السبب فى هذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما ارسل اليه جنكيز خان سفيرا يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله أيضا ، فاشتعل جنكيز خان غضبا ، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم شاه ، ثم على عالم الاسلام كله .

ولكن اذا تدبرنا فى ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار اليه القرآن ، ولاسيما ما ذكره فى بدء سورة الاسراء من تدهور بنى اسرائيل وافسادهم فى

---

(١) فصل كتبه المؤلف فى « أردو » لكتابه « تاريخ دعوة وعزيمة » ونقل أكثره الاستاذ سعيد الأعظمى الى العربية .

الأرض ، وعلوهم وتمردهم وما جر ذلك الى زحف الملوك الظالمين ، وتسلطهم على بنى اسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا ان السبب الحقيقى فى هذه الفتنة الكبرى ، والمحنة التى أصيب بها العالم الاسلامى ، ليس أن يقترف ملك او حاكم من خطأ فى التدبير والسياسة ، فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء ، ويفاجيء العالم الاسلامى ، وتصاب الأمة الاسلامية بهذه الفتنة العمياء ـ التى لم تكن تتوقعها ولا تستحقها ـ لمجرد أن يخطيء فرد من أفرادها .

اذا حملنا نبراس القرآن فى يدنا ، واستعرضنا اوضاع المسلمين الخلقية والدينية ، والمدنية والسياسية فى ذلك العصر تحقق لنا كالشمس فى رابعة النهار ، أن هذه الحادثة المشئومة لم تكن مفاجأة ، وانما هناك أسباب اكثر عمقا واصالة مما ظنه الناس وذكروه ، ولكى نبحث عن هذه الأسباب العميقة الأصيلة يجب ان نتأخر الى سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس باجمال أوضاع الدول الاسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع فى ذلك العصر .

اوضاع مركز الخلافة والعالم العربى فى هذا العصر :

ان المملكة الأيوبية توزعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٨٩ هـ بين أولاده وأفراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم فى أداء هذه الأمانة التى آلت اليهم ، شأن كثير من

اولاد الولاة ، واولى العزم من الحكام ، فقد ظل الصراع قائما بينهم الى مدة طويلة ، حتى أن بعضهم لم يتلكأوا فى الاستعانة بالصليبيين بتدبير المؤامرة ضد اخوانهم وأصحابهم ، وقد أنتج هذا الوضع الشاذ اضطرابا سياسيا ، وانحلالا خلقيا ، وفوضى فى سائر الولايات التابعة لهذه المملكة ، وكان الناس يعيشون فى جو من القلق والخوف .

هذا وكانت الغارة الصليبية الأفرنجية تتعاقب على تلك الحواضر الاسلامية ، التى كان السلطان صلاح الدين قد استردها بعد تضحيات ضخمة ، وقد فشت أمراض واوبئة ومجاعات شديدة نتيجة لهذا الانحطاط الخلقى ، والانحراف الادارى ، وفى سنة ٥٩٧ هـ حدثت مجاعة فى مصر فما فاض فيها النيل ، وتزلزلت ارض مصر بمنازعات الملكين العادل والأفضل ، حتى اشتد الغلاء بأرض مصر ، فهلك خلق كثير جدا من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة فى الذيل :

« ان العادل كفن من ماله فى مدة شهر من هذه السنة نحوا من مائتى ألف وعشرين الف ميت ، واكلت الكلاب والميتات فيها بمصر ، واكل من الصغار والأطفال خلق كثير ، يشوى الصغير والداه ويأكلانه ، وكثر هذا فى الناس جدا حتى صار لا ينكر بينهم ،

فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوى الضعيف فذبحه وأكله (١) » .

واستمرت هذه الحال وفقا لسنة الله فى الأرض ، وظلت الانذارات السماوية ، والأحداث الجسام تحذر الناس ، وكانت كفيلة بأن تبعث الناس على التوبة والانابة الى الله ، واصلاح أحوالهم « وحدثت فى نفس هذه السنة زلزلة عظيمة ابتدات من بلاد الشام الى الجزيرة والروم والعراق .. واخربت محال كثيرة من طرابلس ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامراء ، ومات بها وبقراها ثلاثون الفا تحت الردم .. ومات امم لا يحصون ولا يعدون ، حتى قال صاحب « مرآة الزمان » : انه مات فى هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من الف الف ومائة الف انسان قتلا تحتها (٢) والله اعلم .

هذا ، وقد تفاقم الشر فى مركز الخلافة (دار السلام بغداد) ، وسيطرت عليه مظاهر الأبهة الملوكية والسلطان الأعمى ، وتغلغل نفوذ الخدم والحشم فى قصور الخلفاء ، وبلغت الثروة والمدنية ذروتهما ، ولا يمكن أن نتصور ما كان يمتلكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦ .
(٢) أيضا ص ٢٧ .

ويكفى أن نذكر على سبيل المثال ، أن علاء الدين الطبرسى الظاهرى ، وهو ممن اشتراهم الخليفة الظاهر ، كان يحصل له من أملاكه التى استجدها نحو ثلاث مائة الف دينار سنويا ، وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها ، وكذلك مجاهد الدين ايبك الدويدار المستنصرى ، وقد ملك جزيل الأموال من العين ، والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين والضياع ، ويتعذر وصف ما انفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، والجواهر التى جهز بها أولاده وبناته فى ليالى الزفاف ، كما أن الفراش الصلاح عبد الغنى بن فاخر المتوفى ٦٤٨ هـ ، وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة ، كان يعيش مع خلوه من العلم عيشة الملوك ، بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية فى هذا العصر وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون فى أكبر جامعة اسلامية فيها ، لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من ١٢ دينارا شهريا .

وبجانب ذلك نجد أن ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم للشرابى على مجد الدين أيبك المستنصرى ، المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأن ٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابى للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر من الموصل .

ولكن ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة ، والتظاهر بالفخفخة والأبهة الملوكية يجب أن نعرف أن

المواكب التى كانت تخرج فى مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس ، حتى انهم كانوا يتناسون انفسهم ، ويتشاغلون عن اداء الصلوات ، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكى ، الذى خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠ هـ استمر الى الليل ، وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء (١) ، وذكر فى « المسجد المسبوك » أن العساكر فى عاشر ذى الحجة سنة ٦٤٤ هـ خرجوا الى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس ، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة ، فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليد وعتبة باب النوبى ، وحافر الخيل والأرض والرغام .

« وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشى الرشوة وعزل كبار الموظفين ، والقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم ، وتفاقم امر الباطنية والشطار والعيارين ، واشتداد النزاع الطائفى والتفكك الخلقى ، والانصراف الى الملاهى والقيان والتكاثر فى الأموال » (٢) .

---

(١) الحوادث الجامعة أخبار سنة ٦٤٠ هـ .

(٢) استفدنا فى هذا الفصل من مقال « عصر الشرابى ببغداد » للاستاذ ناجى معروف المنشور فى مجلة « الاقلام » عدد محرم سنة ٨٦ هـ .

وفى نفس هذه الأيام كان التتر يعبثون بكرامة فارس وتركستان ، ويأتون عليهما من كل جانب وكانت ابصارهم شاخصة الى بغداد ، اكبر مركز اسلامى فى ذلك العهد ، يتحدث المؤرخ الشهير ابن كثير عن استهلال سنة ٦٢٦ هـ بما يأتى :

« استهلت هذه السنة وملوك بنى أيوب مفترقون، مختلفون » ، وظلت بغداد دار الخلافة الاسلامية مركزا للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولا استطاع الخليفة تغيير كسوة الكعبة الشريفة ، التى قد جرت عادة خلفاء الاسلام من قديم بتغييرها ، بين ٦٤٠ هـ و ٦٤٣ هـ ، وبقيت جدران الكعبة عارية عن الكسوة الى ٢١ يوما ، فتشاءم به الناس .

فى سنة ٥٧٥ هـ جلس الخليفة الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته الى اكثر من ٤٦ سنة ، وهى مدة طويلة لم تتيسر لأحد من الخلفاء العباسيين ، ولكنها اظلم عهد فى تاريخ الخلافة العباسية، وقد ذمه المؤرخون وتناولوا أعماله واخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير ، فيقول :

« وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما ، فخرب فى ايامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، واخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشيء وضده ، فمن ذلك انه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان

فبقيت مـدة ثم قطع ذلك ، ثم عمـل دور الضـيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها ، واطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جل همه فى رمى البندق والطيـور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة فى البلاد جميعها ، الا يلبس منه سراويل يدعى اليـه ، وليس كثـير مـن الملوك منـه سراويلات الفتوة ، فأجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك ، فكان غرام الخليفة بهذه الأشـياء مـن أعجب الأمور ، وكان سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحا من انه هـو الذى أطمع التتـر فى البـلاد وراسـلهم فى ذلك (١) » .

توفى الخليفة النـاصر لدين الله سـنة ٦٢٢ هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل الصورة حسـن السريرة جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات ، محسنا الى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجا للخلفاء الصـالحين فى كثير من خصائصـه وعاداته ، ولـكنه ـ مع الأسف ـ لم يجـد فرصـة للتنظيـم والاصـلاح ، وخلفه ولده المسـتعصم بالله فى سـنة ٦٤٠ هـ وكان المستعصم صحيح العقيدة متدينا يظهر عليه خشوع وانابة لم ينقل عنه انه عصى الله بفمه ، ولا بفرجه ، ولا شرب مسكرا ، ولا أخل بصيام الاثنين والخميس من كل شهر ، وكان يصوم شهر رجب من

(١) تاريخ الكامل ج ١٢ ص ١٨١ .

كل سنة ، وكان يحفظ القرآن مواظبا على الصلوات فى أوقاتها الا ان المستعصم لم يكن بصيرا بتدبير الملك على ما رواه ابن كثير ، وكان فيه لين وعدم تيقظ ، ومحبة للمال وجمعه .

وفى سنة ٦٤٢ هـ استوزر الخليفة المستعصم بالله محمد بن العلقمى ، ولكنه لم يكن وزير صدق ولا مرضى الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين اهل السنة والرافضة فى سنة ٦٥٥ هـ « نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نهبت دور قرابات الوزير ، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان هـذا مما أهاجه على أن دبر على الاسلام واهله ما وقع من الأمـر الفظيـع الذى لم يؤرخ ابشـع منه منـذ بنيت بغداد » (١) .

وبالرغم من أن التتار كانوا يتقدمون نحو بغداد ، وكان الخطر التتارى يقرع الأبواب ، كانت « جيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقيـة الجيش كلهم قـد صرفوا عـن اقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحـزنون على الاسـلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمى الرافضى » (٢) .

(١ ، ٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

كان المستعصم رجلا صالحا حسن السيرة والفكر، وكان يحرص على اصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكن فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة، بلغ مبلغا لا يؤثر فيه الا من رزق الارادة القوية ، والشخصية العبقرية ، ومن يستطيع أن يقف سدا منيعا فى وجه الفساد ، ويتغلب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع فى مثل هذه الحال الا العظماء الذين افتتحوا عهدا جديدا ، وأسسوا حكومات جديدة فى التاريخ .

ولقد تكرر فى التاريخ ان آخر أفراد أسرة حاكمة، وآخر حاكم فىمملكة آخذة بالانحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى ، غير ان تلك الأسرة او المملكة كانت قد وصلت الى آخر نقطة من الانحلال والتدهور ، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين الحكومة وبين نهايتها الأليمة التى كان يفرضها قانون السماء ، وتقتضيها طبائع الأشياء ، وشاءت الأقدار أن يعتبر ذلك الرجل الأخير مسؤولا عن نهاية الحكومة فى أسرته الحاكمة بالرغم من انه كان أكثر صلاحا وديانة ، وأحرص على اصلاح الفساد من سلفه الماضين .

وقد كان عدد الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة كما كان عدد منهم معتزلين فى الزوايا والمساجد ، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين ، يقول المؤرخ ابو الحسن الخزرجى يصف أهل العراق يومئذ :

« واهتموا بالاقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر فى المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الأمور الدنيوية ، واشتد ظلم العمال ، واشتغلوا بتحصيل الأموال ، والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم » (١) .

القسم الشرقى من المملكة الاسلامية :

وكان ملوك الخوارزم منفردين بالحكم فى الجزء الشرقى للعالم الاسلامى ، قامت دولتهم ذات الشوكة على انقاض المملكة السلجوقية فى آخر القرن الخامس الهجرى ، وكان العالم الاسلامى كله خاضعا للحكم الخوارزمى باستثناء مصر والشام ، والعراق والحجاز ، والمنطقة السلجوقية الصغيرة الواقعة فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، وكان علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ — ٦١٧ هـ) أعظم ملوك الأسرة طموحا ، وأعلاهم همة ، وأكثرهم فتحا وانتصارا ، وهو أكبر ملك مسلم وأقواهم فى عهده ، يتحدث عنه المؤرخ « هيرلد ليمب » فى كتابه « جنكيز خان » فيقول :

« كان السلطان محمد خوارزم شاه متربعا على عرش الملك فى قلب البلاد الاسلامية ، وكانت رقعة ملكه تمتد

(١) مقال الاستاذ ناجى معروف « عصر الشرابى ببغداد » « الاقلام » ع محرم ١٣٨٦ هـ .

من ثغور الهند الى بغداد ، ومن بحر الخوارزم (آرال) الى خليج الفرس ، وكان مسيطرا على الممالك الاسلامية كلها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصليبيين ، وأسرة السلاطين من مماليك مصر ، وكان السلطان محمد امبراطورا بالنظر الى مكانته ، وبالرغم من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله سخط عليه ، ولكنه كان يعترف بقوته ، ان الخليفة فى بغداد بعد ما تجرد عن كل سلطان دنيوى عاد مجرد رمز دينى ، شأن البابوات فى رومة » (١) .

أما المؤرخون العرب ، فانهم لا يشيرون الى موضع ضعف وعيب شخصى كبير فى سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل انهم يعترفون بتدينه ، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلبه بوجه عام ، ولكن الذى لا خلاف فيه ، انه بذل جميع مواهبه وطاقاته فى القضاء على الحكومات الاسلامية الصغيرة والكبيرة ، حيثما وجدت فى هذا الجزء الشرقى الواسع انه اضطر السلاجقة الى التأخر والانسحاب الى آخر حدودهم فى جانب ، كما انه ظل يحارب الغوريين فى الشرق والجنوب فى جانب آخر ، واضطرهم الى الانحصار فى جزء محدود ، وأن خيرة عناصر الفروسية والنضال فى ايران وتركستان ، قد أثخنتها الحروب الطاحنة المتواصلة ، التى لم تكد تنتهى ، فكان الجو الحربى

(١) جنكيزخان ص ١٤٧ .

يسود المدن والأقاليم الخصبة الغنية وعلى مشاعر أهلها فى كل حين ، وقد اجتمعت غنائم البلاد المفتوحة ، وحاصلات الأقاليم الخصبة ، وتأنق الصناع فى الصناعات ، وأدوات الزينة ، فبلغت بذلك كله المدنية أوجها ، واجتمعت جميع عوامل الفنى والجدة والرفاهية والانتصارات وما يتبعها من ترف وبطر .

ومن الصعب العسير أن يوجد حديث عن الأدواء الخلقية ، التى كانت تعانيها الحضارة والمجتمع ، فى كتب التاريخ التى تدور حول البلاط الملكى ، والسرائى ، ورجال الحكومة ، وان مظنة هذا الحديث هى كتب المشائخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكتب المواعظ ، التى اكتسح معظمها السيل التتارى ، ولا يسعنا أن نحمل ما صرح به المؤرخ المسيحى « هيرلد ليمب » فى كتابه « جنكيز خان » على مجرد التعصب الدينى والمبالغة ، انه يقول :

« ان العالم الذى كان يعيش فيه المسلمون كان عالم الحرب والجلاد ، وكان لا يخلو من شغف بالغناء والموسيقى ، ومن الطرب والاهتزاز . لكنه رغم هذا الظاهر كان يعيش فى قلق واضطراب ، فكان المماليك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس فى جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زمام الأمور فى يد أولئك الذين كانوا ينهبون الرعية ،

ويترفهون على حسابها ، وكانت حراسة الحرم ، والاشراف على السرائى للخصيان » (١) .

خطأ الملوك الخوارزمية :

وقد صدر عن الملوك الخوارزميين نفس الخطأ الكبير الذى وقع فيه الحكام العرب فى الأندلس ، ولم يعف عنهم قانون المكافأة الألهى ، وذلك انهم بذلوا كل قواهم فى توسيع رقعة الملك ودعمه ، وقمع الخصوم ، ولم يبذلوا أى اهتمام بتبليغ رسالة الاسلام الى ذلك القسم البشرى الذى كان يعيش بجوار حدودهم ، وكان بنفسه عالما مستقلا ، وبصرف النظر عن الدافع الدينى والواجب الاسلامى ، كان مقتضى الحزم السياسى وبعد النظر أن يعنوا بايجاد الانسجام العقائدى مع هذه الدنيا الانسانية الواسعة ، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجا ، يحفظهم عن ذلك الخطر الذى لم يواجههم وحدهم فحسب ، بل اكتسح المسلمين كلهم .

زحف التتار نحو العالم الاسلامى :

فى نفس هذه الأحوال والزمان تقدم التتار بادىء

---

(١) جنكيز خان ص ١٤٣ .

بدء ، كعقاب الهى بقيادة ملكهم « جنكيز خان » (١) نحو الجزء الشرقى للعالم الاسلامى ، ايران وتركستان حتى وصلوا الى بغداد التى أسلفنا ذكرها ، واخيرا قاموا بتدميرها وابادة أهلها سنة ٦٥٦ هـ ، « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » (٢)

أن الدافع القريب لهذا الزحف التتارى ، فى عالم الأسباب ، هو أن جنكيز خان بعث الى خوارزم شاه رسولا يقول له : انك تحكم رقعة عريضة كما أننى أملك مملكة واسعة ، فاذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ، وسمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك فى صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامت العلاقات التجارية ، وبدأ التجار يتبادلون أموال التجارة بين البلدين ، ولكن ما الذى حدث بعد ذلك حتى شهد العالم الاسلامى ذلك اليوم المشؤوم الذى يدعى بغارة التتار ؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك

---

(١) مبدأ مملكة جنكيز خان سنة ٥٩٥ هـ ، وأول حملة على حكومة خوارزم شاه كانت فى سنة ٦١٦ هـ ، وقد مات جنكيز خان ٦٢٤ هـ ، فقام أبناؤه وأحفاده بتحقيق غاياته التى أرادها ، فلما واجهت بغداد الغارة التتارية سنة ٦٥٦ هـ ، كان هولاكو حفيد جنكيز خان قائد القوات التتارية وأميرها .

(٢) سورة الأنفال ٢٥ .

المؤرخ الغربى « هيرلد ليمب » ويصدقه تماما ما جاء فى التاريخ الاسلامى ، انه يقول :

« انفصمت العلاقات التجارية التى أقامها جنكيز خان بين البلدين فجأة ، وكان السبب فى ذلك أن قافلة من التجار كانت متوجهة من « قراقورم » الى الغرب ، فلما وصلت الى « اترار » تعرض لها حاكمها الذى كان يدعى باينل جق وأسر رجالها ، واخبر ملكه خوارزم شاه بذلك ، وقال ان هذه القافلة لا تخلو من جواسيس جنكيز خان ، وكان هذا الخبر مما يؤيده العقل .

وما ان وصل الخبر الى خوارزم شاه حتى أمره بقتل التجار كلهم دون أن يفكر فى هذه القضية ، ويتأنى فى اصدار الأمر ، ونفذ أمره بقتل التجار الذين جاءوا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيز خان ، أرسل سفراءه الى خوارزم شاه يشكو اليه ما حدث مع هؤلاء التجار ، وانتهز خوارزم شاه الفرصة فقتل رئيس السفراء ، وأمر باحراق لحى الباقين ، الذين رجعوا الى جنكيز خان وقصوا عليه القصة وفور سماع هذه القصة صعد جنكيز خان على جبل فى « صحراء الجوبى » ليفكر فى القضية ، لأن قتل رسول المغول كان جريمة لاتغتفر . كان لابد من الانتصار لها حسب ما جرت عادة المغول فى مثل هذه الأمور .

واعلن جنكيز خان قائلا : « اذا كانت السماء

لا تحتمل وجود شمسين ، فان الأرض كذلك لا تحتمل وجود ملكين » (١) .

الجزء الشرقى للعالم الاسلامى بين النار والدمار :

وقد ابتدأ التتار ببخارى واتوا عليها من كل جانب ، فدمروها حتى عادت كومة من تراب ، ثم توجهوا الى سمرقند واحرقوها وابادوا أهلها ، ولقيت نفس المصير المدن الشهيرة للعالم الاسلامى كهمدان وزنجان ، وقزوين ، ومرو ، ونيسابور ، وخوارزم ، أما خوارزم شاه الذى كان يعتبر الملك الوحيد للعالم الاسلامى وأقوى الملوك فى عصره ، فكان يعيش فى خوف وهلع ، وتنقل وارتحال ، يبحث عنه التتار ويتعقبونه حتى توفى فى جزيرة مجهولة .

كان خوارزم شاه قد ضم ولايات فارس وتركستان المسلمة ودولهما المستقلة الى مملكته ، فلما هزمه التتار لم يكن هناك من يقاومهم فى هذا الجزء الشرقى ، وقد دخل رعب التتار فى قلوب المسلمين ، الى حد أن أحد التتار دخل بعض الأحيان فى سكة من سكك مدينة حيث وجد مائة رجل من المسلمين فقتلهم كلهم وأتى على آخرهم دون أن ينجرا أحد منهم لمقاومته .

---

(١) جنكيز خان ص ١٤٧ .

وذات مرة دخلت امراة تاتارية بيتا متزيية بزى الرجال ، وقتلت جميع أفراد الأسرة ، وقد عرف احد المسجونين الذى كان معها انها امراة فقتلها ، وقد حدث بعض الأحيان أن تاتاريا أسر مسلما وقال له ضع راسك على هذا الحجر حتى آتى بالخنجر فأذبحك ، وخضع له المسلم ولم يسعه أن يبرح مكانه ذاك ، ثم اتى التتارى بالخنجر من المدينة وذبحه به (١) » .

كانت غارة التتار فتنة عظيمة ، ومحنة كبيرة ، هزت العالم الاسلامى هزا عنيفا ، وتركت المسلمين مبهوتين مشدوهين ، واستولى الرعب والخوف على العالم الاسلامى من اقصاه الى اقصاه ، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يعتبرون التتار بلاء سماويا ، ومقاومتهم مستحيلة ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى سار المثل : « اذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق » فكل بلاد أو دولة توجهوا اليها عرف انها ابيدت وخربت ، ولم يبق فيها شىء من مقدسات المسلمين الا وانتهكت حرمتها ، فكان اتجاه التتار الى جهة يرادف معنى التدمير والابادة ، والذلة ، وانتهاك الأعراض ، ولا شك أن العالم الاسلامى كله ولاسيما الجزء الشرقى منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء على بكرة أبيه ، أن المؤرخ يشتغل

(١) من اراد التفصيل فيرجع الى الكامل لابن الأثير ج ١٢ ، ودائرة المعارف للبستانى ج ٦ مادة « تتر » .

بتسجيل كل لون من الوان الأحداث والوقائع ، وتمر به مناظر كثيرة لابادة الأمم والبلدان حتى يتعود احتمال كل ذلك ، فيجرى قلمه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يرق لها قلبه ، وتدمع لها عينه ، ولكن المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من اخفاء شعوره الجريح وتألمه النفسى ، حينما وصل الى ذكر حادث التتار ، انه يقول :

« لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر اخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، الا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رايت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها وعمت الخلائق ، وخصت المسلمين، فلو قال قائل أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا مايدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج ، وهؤلاء لم يبقوا على احد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ، فانا لله وانا

اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح » (١) .

ويقول مؤلف « مرصاد العباد » : الذى شهد هذه الوقعة بعينه وما دار فى مولده « الرى » وموطنه « همدان » من حوادث فظيعة ومن التخريب والتدمير :

« استولى الجيش التتارى ــ خذلهم الله ودمرهم ــ سنة ٦١٨ هـ على بلاد الاسلام ، لا يعرف نظير لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والافساد ، والقتل والهدم والاحراق وما ظهر من اولئك الملاعين من فظائع تقشعر منها الجلود فى اى عصر من عصور التاريخ ، لا فى الاسلام ولا فى الجاهلية ، فقد قتلوا واسروا فى « رى » وحدها التى هى مولدى اكثر من سبع مائة إلف مسلم ، ان الفتنة التى اثاروها فى العالم الاسلامى ، والمصيبة التى انزلوها على المسلمين لا تسع الكلمات أن تصورها ، وهذه الحادثة أغنى من أن تشرح للناس .

وعياذا بالله ، اذا لم تتحرك حمية الاسلام وغيرته فى ملوك المسلمين وسلاطينهم ، ولم يذكروا انهم مسؤولون عن الأمة لقوله صلى الله عليه وسلم : « الأمير راع على رعيته وهو مسئول عنها » واذا لم

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ١٢ ص ١٤٧ ــ ١٤٨ .

تنبعث فيهم اريحيتهم ورجولتهم لكى يتحدوا على كلمة واحدة ، وينقادوا لما امرهم الله به فى قوله : « **انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله** » واذا لم يستعدوا لبذل النفس والمال والملك لكى يدفعوا هذه الفتنة ، فان ذلك كله يدل على ان المسلمين سيفاجئهم الذل والنكسة ، وترتمى معظم بلاد الاسلام فى أحضان الكفر ، واخشى ان المسلمين الذين كانوا لا يحملون الا الاسم ، سيفقدون الاسم والرسم كليهما نتيجة لما ندعيه ولا نعمل به » (١) .

صاعقة نزلت على العالم كله :

ولم يكن العالم الاسلامى وحده مصابا بهذه الفتنة التتارية ، وانما العالم المتمدن كله كان متوجلا من هذه الغارة ، وقد تفشى الذعر والخوف فى الأمكنة التى لم يكن يرجى فيها وصول التتار ، يقول « جبن » فى كتابه الشهير « تاريخ انحطاط رومة » :

« حينما اطلع سكان السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا ، تسلط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج الى سواحل انجلترا لصيد الأسماك ، وقد كان ذلك عادة متبعة لديهم » .

---

(١) مرصاد العباد (المخطوط ، المحفوظ فى مكتبة ندوة العلماء) ص ٨ .

وقد تصدى المؤلفون « لتاريخ العهد المتوسط للكيمبردج » بذكر صدام المغول الشديد الذى كان سببه جنكيز خان بما يلى :

« لم يكن فى وسع الانسان أن يسد سيل المغول ، فقد تغلبوا على جميع أخطار الصحارى والغابات ، ولم يقف فى وجههم اى شيء من الجبال والبحار ، وشدائد الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا يخافون اى خطر ولا مانع ، ولا كانت هناك قلعة ترد هجومهم ولا كانت تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم .. نحن نواجه هنا فى مجال التاريخ قوة جديدة ، قامت بتقديم الحل السريع لكثير من القضايا المعقدة السياسية والوطنية ، التى كانت تشغل العقول فى ذلك العصر ، وقضت عليها كما تقضى الصاعقة التى تنزل من السماء على كل ما تصيبه فى الأرض ، وقد كانت هذه القضايا الوطنية والسياسية بالغة فى تعقدها الى حد لم يكن يرجى منه الخلاص لولا أن وقعت عليها هذه النازلة » .

« ان ظهور هذه القوة الجديدة فى تاريخ العالم ، أعنى قدرة رجل واحد على تغيير حضارة النوع البشرى ، يبتدىء من جنكيز خان ، وينتهى الى حفيده قوبيلائى خان الذى بدت فى عهده آثار الفرقة والانشقاق فى مملكة المغول المتحدة المتماسكة ،

والحقيقة ان التاريخ لم يشهد الى الآن قوة تشبه قوة هؤلاء المغول » (١) .

تدمير بغداد :

وأخيرا دخل هؤلاء الوحوش بعدما خضبوا ارض العالم الاسلامى كله بدماء آهله ، وأتوا عليه فى بغداد دار الخلافة الاسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر فى ذلك العصر بقيادة حفيده هولاكوخان ، ودمروها تدميرا ، ولاشك أن تفاصيل قتل المسلمين فى بغداد وتدميرها طويلة ومؤلمة ، ونستطيع أن نقدر مدى هذه الوقعة العظيمة ببيان بعض المؤرخين الذين شهدوا آثارها بأعينهم ، وسمعوا تفاصيلها من مشاهديها ، يقول المؤرخ ابن كثير :

« وما زال السيف يقتل اهلها أربعين يوما ، ولما انقضى الأمر المقدور ، وانقضت الأربعون يوما ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد ، الا الشاذ من الناس ، والقتلى فى الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم ، وانتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء ، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى فى الهواء الى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء » (٢) .

(١) مأخوذ من « جنكيز خان » ص ١٤٧ .
(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٠٣ .

ويقول الشيخ تاج الدين السبكى :

« فأنزل (هولاكو) الخليفة (المستعصم) فى خيمة ، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم ، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم ، ثم طلب حاشية الخليفة فضرب أعناق الجميع ، ثم طلب أولاده فضرب أعناقهم ، وأما الخليفة فقيل لهولاكو أن هذا أن أريق دمه تظلم الدنيا ويكون سبب خراب ديارك ، فقام نصير الدين الطوسى (١) وقال : يقتل ولا يراق دمه ، فقيل ان الخليفة غم فى بساط ، وقيل رفسوه حتى مات » .

---

(١) يصدق ذلك ما قاله الدكتور مدرس رضوى فى كتابه « أخبار وآثار خواجة نصير الدين طوسى » الذى نشرته جامعة طهران ، فقد اعتبر المؤلف نصير الدين الطوسى مسؤولا عن هذه الوقعة ، أنه يقول :

« ان مكيدة الطوسى السياسية التى نجحت أخيرا هى أنه أثار هولاكو خان على استئصال الخلافة العباسية ، وتدمير القصر الملكى ، وقد كان هولاكو مأمورا من قبل أخيه منكوقا آن ، بالقضاء على الخلافة العباسية بعد استئصال الباطنية .

ان هولاكو بعث ألى الخليفة المستعصم بالله الأمر بالطاعة ، واستمرت المكاتبة على ذلك ، ولكن دون جدوى ، وأخيرا استشار هولاكو زملاءه ، وكانت المغول يعتقدون بسعد النجوم ونحسها ، فلما أخبره منجم سنى المعروف بحسام الدين ألذى كان ملازما لبلاطه بأن=

واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوما ، ولم ينج الا من اختفى : وقيل ان هولاكو امر بعد ذلك بعد القتلى ، فكانوا ألف ألف وثمان مائة الف ، ثم طلبت النصارى أن يقع الجهر بشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، وأن يفعل معهم المسلمون ذلك فى شهر رمضان ، وأريقت الخمور فى المساجد والجوامع ، ومنع المسلمون من الاعلان بالأذان .. هذه بغداد لم تكن دار كفر قط ، وجرى عليها هذا الذى لم يقع قط منذ قامت الدنيا مثله » (١) .

= هذه ساعة نحس للغارة على بغداد ، وكلما تصدى ملك للاستيلاء على الخلافة فى مثل هذه الساعة أخفق فى ارادته ، وأصيب ببلاء ، فانك أيها الملك اذا أبيت الا أن تغير ، ينقطع المطر ، وتعم الزلازل والعواصف ، ويخرب العالم ، وأشد من كل ذلك أن الملك (منكوقا آن) يهلك ، فلما سمع بذلك هولاكو تردد هنيهة ، واستطلع رأى الطوسى وقال : « ماذا تقول عن مصيرنا اذا أغرنا الآن على بغداد » فقال له الطوسى : آن الغارة على بغداد لا تؤول الا انك ستحتل محل الخليفة ، ثم دعا هولاكو المنجم حسام الدين وطلب منهما المناظرة حول هذا الموضوع ، فقال له الطوسى : لقد قتل آلاف من الصحابة رضى الله عنهم ولم يظهر فساد ، واذا كان هذا مما يخص العباسيين ، فانظر الى طاهر الذى قاتل الأمين لما أمره المأمون بذلك وقتله ، وقتل المتوكل على الله أولاده وغلمانه ، وقتل ألمنتصر والمعتضد الأمراء والغلمان ولكن لم يحدث هناك زلزلة ولا طوفان .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ١١٤ ـ ١١٥ .

وقد ظلت بغداد ، على علاتها ومواضع ضعفها أكبر مدينة للعالم الاسلامى ، ومركز العلوم والفنون ، ومهد العلماء والصالحين ، وكانت موضع فخر المسلمين لكونها دار الخلافة ، فاضطرب لتدميرها المسلمون كلهم وبكوا عليها ، وقد قرض الشيخ مصلح الدين سعدى (٢) رحمه الله ، الذى أقام فى بغداد كطالب ، وشهد بهاءها وجمالها قصيدة رثاء تنطق عن قلوب المسلمين الجريحة ، وشعورهم المكلوم فى ذلك الوقت ، ننقل فيما يلى ترجمة لعدة أبيات منها يقول :

« ان للسماء كل الحق أن تمطر دما على الأرض لما أصاب مملكة الخليفة المستعصم من زوال وفناء ، اذا كانت القيامة حقا واقعا يا محمد عليه الصلاة والسلام ، فاحسر عن وجهك الرداء وشاهد القيامة بين الخلق اليوم ، لم يدر بخلد أى انسان ابدا أن حوادث الدهر تأتى بما أتت به اليوم ، افتح بصرك يا من شهدت عظمة البيت الحرام لتنظر أن الملوك دفنوا تحت التراب ، واحتل محلهم المغول والخاقان ، أريقت دماء أبناء عى النبى صلى الله عليه وسلم على تلك الأرض ، التى كانت الملوك الكبار يخرون عليها ركعا سجدا ، واصبحت دجلة تزبد بدم أهلها ، وهى

---

(٢) أحد أئمة الشعر الفارسى ، صاحب كتابى « كلستان » و« وبوستان » الخالدين فى المكتبة العالمية .

تعجن التراب فى نخل بطحاء بالدماء ، أن وجه هذا النهر تغير وامتقع لونه من هذه الوقعة الهائلة وبدت التجاعيد فى هذا الوجه ، ان النياحة لا تجدر على تراب هؤلاء الشهداء ، فان أقل جزاء يستحقونه هى جنة الفردوس ، ولكن الواجب الدينى ، وصلة الحب والعاطفة تجعل قلب المحب يعيش فى لوعة الفراق » (١) .

التتار فى الشام :

توجه التتار نحو حلب الشهباء بعد بغداد ، وعاملوها معاملة بغداد كما ذكر ابن كثير ، ثم تقدموا الى دمشق واستولوا عليها فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٥٨ هـ .

وقعة عين جالوت وتراجع التتار عن مصر :

وكان التتار متوجهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة ، وكانت مصر وحدها التى لم تصبها ويلات التتار ، وقد كان ملك مصر المظفر سيف الدين قطز قد تفرس أن التتار يزحفون الى مصر بعد الشام ، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأى ان يخرج من مصر بالجنود ويشن عليهم الهجوم فى نفس الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر

---

(١) كليات سعدى .

الاسلامية ، والتتار فى عين جالوت يوم ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، وانهزم التتار شر هزيمة بخلاف ما سبق لهم من الحروب ، فخرجوا منها هاربين ، وتعاقبهم الجنود المصريون فقتلوهم وأسروا منهم عددا كبيرا ، يقول العلامة السيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » :

« فهزم التتار شر هزيمة ،وانتصر المسلمون ولله الحمد ، وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم » (١) .

وهزمهم الملك الظاهر بيبرس بعد انهزامهم فى عين جالوت مرات عديدة ، وأخرجهم من أرض الشام وطردهم منها ، حتى بطل المثل السائر « اذا قيل لك أن التتار انهزموا فلا تصدق » .

انتشار الاسلام فى التتار :

وقبل أن ينجرف العالم الاسلامى مع هذا السيل الجارف العنيد ،وينطمس معالمه وملامحه ، (كما كان المشاهد الملموس عند ذوى البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين فى ذلك الحين) بدأت دعوة الاسلام تنتشر فجأة فى هذا الشعب ، ويتحقق على أيدى دعاة الاسلام ما لم يتحقق بالأسنة والرماح ، وبطش

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥ .

السلاطين والملوك ، وبدأ الاسلام يتسرب فى نفوس أعدائه ، ويأخذ بمجامع قلوبهم ، ان خضوع هذا الشعب الذى قهر المسلمين أمام الاسلام من اغرب الوقائع والأحداث فى التاريخ ، فان هجوم التتر على العالم الاسلامى كالجراد المنتشر ، واخضاع العالم الاسلامى كله ، ليس من الغريب المدهش كما يبدو فى الظاهر ، فان عالم الاسلام فى القرن السابع كان بدوره مصابا بتلك الأمراض والأسقام ، التى تلحق الأمم عامة فى أوج حضارتها وشوكتها ، بالعكس من التتر ، ذلك الشعب القوى الأبى الذى نشأ على حياة البداوة ، والهمجية والضراوة ، ولكن الغريب المدهش ان هذا الشعب خضع للمسلمين المفتوحين المقهورين ، واعتنق دينهم فى أوج قوته ، وذروة سلطانه ، ذلك الدين الذى فقد كثيرا من سلطانه السياسى والمادى آنذاك ، وكان أتباعه موضع سخرية واحتقار فى نظر التتار .

وقد أبدى « أرنولد » استغرابه فى هذا الصدد فى كتابه المشهور Preaching of Islam. « الدعوة الى الاسلام » حيث قال :

« ولكن لم يكن بد من ان ينهض الاسلام من تحت انقاض عظمته الأولى ، واطلال مجده التالد ، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل فى ذلك الى نشاط الدعاة من المسلمين ، الذين كانوا

يلاقون من الصعاب اشدها لمناهضة منافسين قويين ، كانا يحاولان احراز قصب السبق فى ذلك المضمار ، وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى ، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة ، الذين داسوا بأقدامهم رقاب اهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم » (١) .

« ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الاسلام فى مستهل الحكم المغولى لغيره من الديانات القوية ، كالبوذية والمسيحية كانت عملا بعيد المنال ، اذ ان المسلمين كانوا قد قاسوا اكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذى صحب غارات المغول ، وأن معظم هذه المدن التى كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم فى الاسلام فى القارة الآسيوية ، قد اصبح معظمها أطلالا دارسة ، حتى أن الفقهاء وائمة الدين

---

(١) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٥٠ (ترجمة جماعة من الاساتذة المصريين) .

الأتقياء ، كان نصيبهم القتل او الأسر (١) ، وكان من بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة من يظهر الكراهية للدين الاسلامى على درجات متفاوتة ، فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذى قرره الاسلام ، ثم سار على نهجه قوبيلائى ، فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين اضطهادا عنيفا دام سبع سنين ، حتى أن كثيرا من المعدمين وجدوا فى سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة ، وأتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكى يحصلوا على حريتهم (٢) وقد عانى المسلمون أقسى ضروب العسف والشدة فى عهد كيوك (١٢٤٦ — ١٢٤٨ م) .

« وقد اضطهد ارغون (١٢٨٤ — ١٢٩١ م) رابع

(٢،١) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التى لقيها هؤلاء ، أن رائضى الخيول من اهالى الصين ، كانوا اذا عرضوا اشباحا ، اظهروا البشر والحبور فى صلف واعجاب بعرض صورة تمثل رجلا مسنا ذا لحية بيضاء يجر حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل ، وانما هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول فى معاملتهم للمسلمين .

Howorth, vol. i. p. 159.
Howorth, vol. i. p. 165.
Deguignes, vol. III p. 265.

ايلخانات المغول فى فارس ، المسلمين فى بلاده ، وصرفوم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور فى بلاطه (١) ، وعلى الرغم من جميع المصاعب ، اذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة (٢)آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى ساموها الخسف وجعلوها فى مواطىء أقدامهم » (٣) .

ان هذا الحدث مثار دهشة وعجب ، ولكن استغرابنا يشتد ، حينما لا نجد تفاصيله وافية فى بطون التاريخ ، اننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المآثر ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج فى حظيرة الاسلام ، مع ان هذه المأثرة لا تقل أهمية عن اى مأثرة اسلامية فى التاريخ ، ولهم فضل لا ينكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الانسانية كلها ، الى أن يأذن الله لها بالفناء ، فانهم انقذوا العالم من دمار محتوم ، ووضعوه تحت رعاية شعب يؤمن بالله وحده ، ويدعو الى دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ان دولة جنكيزخان توزعت بعد وفاته الى أربعة فروع ، وبدأ الاسلام ينتشر فى هذه الفروع الأربعة ،

---

(١) وفى القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا .
(Cahon p. 279).

(٢، ٣) الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٦ – ٢٥٧ – ٢٥٨ .

وأصبح التتر يعتنقون الاسلام بجهود الخاقان ، حتى دخلوا فى ظرف مائة سنة فى دين الله ، وقد سرد إرنولد عدة أحداث تلقى الضوء على هذا الباب ، انه يحكى قصة شيوع الاسلام فى فرع جوجى خان الابن الأكبر لجنكيزخان ، الذى كان يحكم سيرا داردا ، الجزء الغربى من الدولة ، فيقول :

« وكان بركة خان (١٢٥٦ – ١٢٦٧ م) أول من اسلم من أمراء المغول : وكان رئيسا للقبيلة الذهبية فى روسيا بين سنتى ١٢٥٦ و ١٢٦٧ م (١) ، وقد قيل فى سبب اسلامه أنه تلاقى يوما مع عير للتجار آتية من بخارى ، ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الاسلام ، فشرحاها له شرحا مقنعا انتهى به الى اعتناق هذا الدين والاخلاص له ، وقد كاشف أصغر أخوته أول الأمر عن تغييره لدينه ، واعتناقه الاسلام ، وحبب اليه أن يحذو حذوه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين» (٢) .

« وقد دخل بركة خان فى حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) سلطان المماليك فى

---

(١) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختار الزاهدى . وضع لبركة خان فى سنة ١٢٦٠ م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبى الدينية ، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة .

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٨ – ٢٥٩ (أبو الغازى ج ٢ – ص ١٨١) .

مصر ، الذى بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ، فقد احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين ، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو فاتح بغداد ، وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه ، فروا الى سورية ، حيث يممون منها شطر مصر ، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم فى بلاط بيبرس ، الذى اقنعهم بصحة الدين الاسلامى واعتناقه (١) ، وكان بيبرس نفسه فى حرب مع هولاكو ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب ، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابا الى بركة خان ، وقد نقل هؤلاء عند عودتهم الى مصر ، ان لكل امير وأميرة فى بلاط بركة خان اماما ومؤذنا خاصا ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس (٢) ، وكان من اثر هذه العلاقات الودية التى قامت بين بيبرس وبركة خان ، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الاسلام دينا لهم »(٣).

انه يحكى قصة انتشار الاسلام فى الايلخانية الفرع الثانى لأسرة جنكيزخان ، ويقول :

(١) المقريزى (م) ج ١ ص ١٨٠ — ١٨١ ، ١٨٧ .
(٢) المقريزى (م) : ج ١ ص ١٢١٥ .
(٣) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٥٩ — ٢٦٠ (المقريزى) (م) ص ٢٢٢ .

« كان الاسلام أقل انتشارا فى بلاد الفرس حيث اسس هولاكو أسرة ايلخانات المغول ، ولكى يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر ، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية فى الشرق كملك ارمينية والصليبيين ، وكانت زوجته المحببة اليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو اخوانها فى الدين ، كما تزوج ابنه اباقاخان (١٢٦٥ — ١٢٨١ م) من ابنة امبراطور القسطنطينية ، وقد طمع المسيحيون ، فعلقوا الآمال على اعتناق اباقا خان المسيحية ، ولكن الأيام اظهرت أن تلك الآمال لم تكن الا سرابا خادعا ، وكان اخوه تكودار أحمد (١) ، الذى اعتلى العرش من بعده ، أول ايلخانات المغول الذين اعتنقوا الاسلام فى فارس ، وقد شب على المسيحية ، لأنه كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه (٢) ، « تعمد فى صباه وتسمى باسم نقولا ولكنه دان بالاسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم » ، واصبح مسلما دينا ، ولما ارتد عن المسيحية ، رغب فى أن يسمى محمد خان ، وبذل قصاراه فى تحويل كافة التتار الى دين محمد وعقائده ، وقد بعث تكودار أحمد بنبأ اسلامه الى سلطان المماليك فى مصر (قلاوون) فى

(١) أوتيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمى أحمد بعد اعتناقه الاسلام .
(٢) (Hayton. Ramusio, Tom II p. 60, C.)

ذلك الكتاب : « الى سلطان مصر ، اما بعد ، فان الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة ، الى الاقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته (من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) (١) ، فلم نزل نميل الى اعلاء كلمة الدين واصلاح أمور الاسلام والمسلمين ، الى أن أفضى الينا بعد أبينا الجليل واخينا الكبير نوبة الملك ، فأضفى علينا من جلابيب الطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه ، وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها الينا ، فاجتمع عندنا فى قوريليان Qurilty على الأصح) المبارك — وهو المجتمع الذى تقدح فيه الآراء — جميع الاخوان والأولاد والأمراء الكبراء ، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، فى انفاذ الجم الغفير من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها وشديد بطشها ، الى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها صم الأطواد ، وعزمة تلين لها الصم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم ، واجتمعت أهواؤهم عليه ،

(١) سورة ٦ : آية ١٢٥ .

فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من اقتفاء الخير العام، الذى هو عبارة عن تقوية شعار الاسلام ، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا الا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به فى الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار فى مهاد الشفقة والاحسان ، تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فالهمنا الله تعالى اطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، وعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا اليه : من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، واننا لا نحب المسارعة الى هز النصال للنضال ، الا بعد ايضاح المحجة ، ولا نبادر لها الا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح ، اذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبد الرحمن) ، الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه ، وانقذنا أقضى القضاة قطب (الملة) والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفوهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ، وبينا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الاسلام يجب ما قبله ، وانه تعالى القى فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهله .. فان تطلعت نفوس الى دليل

تستحكم بسببه دواعي الاعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا الى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعم أثره ، فانا ابتدأنا بتوفيق الله باعلاء أعلام الدين واظهاره ، فى ايراد كل أمر واصداره ، تقديما لناموس الشرع المحمدى ، على مقتضى قانون العدل الأحمدى اجلالا وتعظيما ، وادخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا : عفا الله عما سلف ، وتقدمنا باصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد ذو المدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وايصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة الى مستحقيها بشروط واقفيها .. وامرنا بتعظيم امر الحجاج ، وتجهيز وفدها وتأمين سبلها ، وتيسير قوافلها ، وانا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم » ، وهو يلتمس محالفة سلطان مصر « بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحل العامة أرض الهوينى ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان (١) * .

(١) وصاف الحضرة ص (٢٣١ — ٢٣٤) .

* وقد ورد هذا الكتاب ايضا فى القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٦٥ — ٦٨ ، وهو مؤرخ فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١=

وان من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء الى أسمى عواطف الانسانية وحب الخير ، التى أعلنت عن نفسها فى تلك الوثيقة التاريخية التى كتبها تكودار احمد الى سلطان المماليك فى مصر ، والتى يدهش الانسان لصدورها من مثل ذلك المغولى .

وقد احفظ تكودار احمد واضطهاده ، المغول الذين كانوا شديدى الاتصال بهم برغم مخالفتهم فى الدين ، وشكوه الى قوبيلائى خان ، متهمين اياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده ، وقد قامت فى وجهه ثورة على راسها ابن أخيه أرغون الذى دبر قتله ، ثم خلفه على العرش ، وفى أثناء حكم ارغون (١٢٨٤ — ١٢٩١ م) القصير ، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد ، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد ، فصرفوا عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، وحرم عليهم الظهور فى بلاطه (١) .

= (أغسطس سنة ١٢٨٢ م) ، وقد بعث به مع رسولين هما قطب الدين شيرازى وأتابك بهلوان ، وقد رد قلاوون على ايلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (٣ ديسمبر سنة ١٢٨٣ م) ، وقد ورد هذا الكتاب فى القلقشندى (ج ٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٢) .

(١) De Guignes, vol. III p.p. 263 - 5.

وقد ظل خلفاء تكودار احمد على وثنيتهم ، حتى دخل غازان (١٢٩٥ – ١٣٠٤ م) سابع الايلخانات وأعظمهم شأنا فى الدين الاسلامى فى سنة ١٢٩٥ م ، وجعله دين الدولة الرسمى فى فارس .

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الاسلام، وشيد عدة معابد للبوذية فى خراسان ، وكان يسر كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون الى هذا الدين ، والذين كانوا قد وفدوا الى فارس فى جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم فى هذه البلاد (١) ، ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل الى تقليب نظره فى المسائل الدينية ، لأنه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة فى زمانه (٢) ، وقد أيد رشيد الدين ، وزيره العالم ومؤرخ عصره ، بالبرهان صحة اعتقاده الاسلام ، الذى أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره فى حماس وغيرة طوال عهده (٣) » .

ان ابن كثير نفسه ذكر اسلام غازان فى وقائع ٦٩٤ هـ بارتياح بالغ ، ويبدو منه – ويؤيده فى ذلك غيره من المؤرخين – ان الفضل فى ذلك يرجع الى الأمير

(١) 1 p. 18 p. 148.

(٢) C. D. Ohsson, Tome IV p. 365.

(٣) الدعوة الى الاسلام – ص ٢٦٠ – ٢٦٤ .

التركى الصالح توزون (١) فان ملك التتار أسلم بجهوده ، كتب ابن كثير فى وقائع ٦٩٤ هـ ، يقول :

« وفيها ملك التتار قازان بن أرغون بن أبغابن تولى بن جنكيزخان فأسلم ، وأظهر الاسلام على يد الأمير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار أو أكثرهم فى الاسلام ، ونثر الذهب والفضة ، واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم اسلامه ، وتسمى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة ، وخرب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية ، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السبح والهياكل مع التتار والحمد لله وحده (٢) » .

يقول ارنولد :

« أن أخاه أولجايتو Aljaytu الذى خلفه فى سنة ١٣٠٤م باسم محمد خدابنده(*) Khudabandah كان على المسيحية دين أمه ، وعمد باسم نيقولا ، على

(١) يسمه أرنولد وغيره من المؤرخين « نورزبيك » .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ – ص ٣٤٠ .

(*) ذكر ابن بطوطة ج ١ ص (١٤٣) أن اسمه مختلف فيه ، وقد قيل خدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله وبنده ومعناها غلام أو عبد ، وقيل خربنده بفتح الخاء ومعناها بالفارسية الحمار وبنده ، معناها غلام أو عبد . فيكون عبد الله ، أو غلام =

أنه لم يلبث أن أسلم بعد موت أمه ، وهو لا يزال شابا فى مقتبل العمر ، وذلك بتأثير زوجته (١) ، ويذكر

= الحمار ، وقد قيل أن سبب تسميته بهذا الاسم الاخير، أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل الى البيت عند ولادته ، فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة ما يحمل عليه من الحيوان ، ولعله يريد هنا الحمار فسمى خربنده ، وذكر براون أن غازان لما تولى فر أولجايتو وظل مشردا يرعى الحمير فى اقليم كرمان هرمز ، ولذلك أطلق عليه اسم خربنده او راعى الحمير ، وقيل أيضا أن أبوى الطفل كانا يطلقان عليه اسما قبيحا حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد ، ولذلك سمى خربنده كما يسمى العرب أبناءهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد فى كبره صخرا أو كلبا على عدوه .

وقال ابن الوردى (تاريخ الوردى ص ٢٦٤) أن خربنده اسمه خدابنده ، وان ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمى وآذربيجان وديار بكر .

Hammer-Purgstall . Geschichte Der Ilchanen vol. II p. 182

(١) لا يبعد أن تكون سبايا الاسلام قد قمن فى تحويل المغول الى الاسلام ، ويظهر أن المرأة شغلت مركزا من مراكز الشرف والكرامة بين المغول ويمكن أن نأتى بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر فى الشئون السياسية ، وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء فى أزواجهن فى المسائل الدينية .

ابن بطوطة (١) ، ان سيرة ذلك الأمير ، كان لها أثر كبير فى نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الاسلام الدين السائد فى دولة ايلخانات فارس (٢)

الفرع الثالث من هذه الأسرة كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مؤسسها جغطائى بن جنكيزخان .

يقول أرنولد :

« وأن ما لدينا من المعلومات عن تقدم الاسلام وانتشاره فى امبراطورية المغول الوسطى ، التى كانت من نصيب جغطائى ، لا يزال ضئيلا ، وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون فى دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من انه لم يبد أى ميل الى الاسلام، وقد ضيق جغطائى على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التى ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء ، ويذكر الجوزجانى أن جغطائى هذا كان الد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة ، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب فى أن ينطق أحد بكلمة مسلم فى حضرته ، اللهم الا اذا

---

(١) ابن بطوطة — ص ٥٧ .

(٢) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

اريد بها التحقير والحط من شأنها (١) ، وقد ربت ارغنة Orghana زوجة قراهولاكو Qara-Hulagu حفيد جغطائي وخليفته ، ابنها على الاسلام ، وتقدم باسم مبارك شاه في سنة ١٢٦٤ م مطالبا بعرش خاقانية جغطائي ، الذي كان مثار النزاع بين أمراء المغول ، ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان Buraq Khan ، ويظهر أنه لم يكن لاسلامه اى اثر بين المغول ، فاننا لو رجعنا في الواقع الى أسماء ابنائه ، لا نجد أحدا منهم قد دخل في دين أبيه (٢) ، وقد قيل ان براق خان نفسه « قد ادركته البركة بتلقيه نور العقيدة » قبل موته في سنة ١٢٧٠ م بأيام قليلة ، وانه تسمى باسم السلطان غياث الدين (٣) ، الا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الاسلامي ، وان من أسلموا في عهده ارتدوا الى وثنيتهم الأولى ، ولم يتم انتشار الاسلام بين المغول في مملكة جغطائي الا في القرن التالي لاسلام مبارك خان ، ذلك على اثر اسلام طرما شيرين Tarmashirin حوالى سنة ١٣٢٦ م ، وقد ظل المغول الذين اقتفوا اثر زعيمهم متمسكين في هذه المرة بدينهم الجديد ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يتأصل الميل الى

(١) الجوزجانى ص ٣٨١ — ٣٩٧ .
(٢) رشيد الدين ١٧٣ — ٤ ، ١٨٨ .
(٣) أبو الغازى ج ٢ ص ١٥٩ .

الاسلام بعد في نفوس المغول ، فان بوزن Buzan الذي كان خان المغول في السنين العشر التالية (ولو ان صحة هذا التاريخ غير محققة) ، لم يلبث ان طرد طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين (١) ، على اننا لم نسمع من ظهور أول ملك مسلم في كاشغر الا بعد سنين قليلة ، وكان ضعف أسرة جغطائي قد اتاح لهذه المملكة ان تستقل بحكم هذه البلاد ، ويقول بعض المؤرخين ان اسلام تغلق تيمور خان Tuqluq Timur Khan (١٣٤٧ — ١٣٦٣ م) ملك كاشغر ، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى في مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين ، وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا على الأراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد ، فأمر بأن توثق ايديهم وأرجلهم ، وان يمثلوا بين يديه ، ثم سألهم في غضب : كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض ، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون انهم يجوسون ارضا محرمة ، ولما علم الأمير أنهم من الفرس ، قال : ان الكلب اغلى من اى فارسي ، فأجاب الشيخ : « نعم ! قد كنا اخس من الكلب ، وابخس ثمنا منه لو اننا لم ندن بالدين الحق » ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم اليه ذلك الفارسي الجسور عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا يعنى بهذه الكلمات ،

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٣ — ص ٤٧ .

وما ذلك الدين ؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الاسلام فى غيرة وحماس ، انفطر لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصور له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال : « ولكنى اذا اعتنقت الاسلام الآن ، فلن يكون من السهل ان اهدى رعاياى الى الصراط المستقيم فلتمهلنى قليلا ، فاذا ما آلت الى مملكة اجدادى ، فعد الى » ، وذلك ان امبراطورية جغطائى انقسمت فى ذلك الوقت الى امارات صغيرة ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور Tuqluq Timur فى توحيد الامبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل ، وفى هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد الى بلده حيث مرض مرضا شديدا ، فلما اشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح تغلق تيمور يوما ما ملكا عظيما ، فلا تنس أن تذهب اليه وتقرئه منى السلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذى قطعه لى » ولم يلبث رشيد الدين الا سنين قليلة حتى ذهب الى معسكر الخان ، وكان قد استرد عرش امبراطورية آبائه ، تنفيذا لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالمثول بين يدى الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيرا لجأ الى هذه الحيلة الطريفة ، ففى ذات يوم اخذ يؤذن فى الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان ، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه ، فأمر باحضاره ومثوله بين يديه ، وهناك أدى

رشيد الدين رسالة أبيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعده وقال : « حقا ! ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائى ، ولكن الشخص الذى قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة » ، ثم أقر بالشهادتين ، وأصبح مسلما منذ ذلك الحين ، « وأشرقت شمس الاسلام ومحت بنورها ظلام الكفر .. .ولكى ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحدا بعد واحد ، ويعرض عليهم الاسلام ، فمن قبله جوزى الجزاء الحسن ، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعباد الأصنام (١) » .

أما الفرع الرابع الذى ينتمى الى اجتائى خان والذى برز فيه من الملوك والفاتحين امثال منجوخان ، وقوبيلائى خان ، والذى كان يحكم الجزء الشرقى من امبراطورية التتر ، فقد يقول فيه أرنولد :

« ولابد أن يكون هناك كثير من أنصار النبى قد انتشروا فى طول أمبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين فى طى الخفاء لجذب الكفار الى حظيرة الاسلام ، ففى عهد اجتائى (١٢٢٩ — ١٢٤١ م) نقرأ عن اسلام بوذى يدعى Kurguz وكان حاكما على بلاد الفرس من قبل المغول (٢) ، وفى عهد تيمور خان (١٢٢٣ —

(١) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٦٥ — ٢٦٧ .

(٢) C. D. Ohsson, vol. III 121.

١٢٢٨ م) كان آنندا Ananda حفيد قوبيلائى (١٢٥٧ – ١٢٩٤ م) وأمير كان سو مسلما متحمسا كما دفع كثيرا من أهل تانجوت Tangut وعددا كبيرا من الجنود الذين كانوا تحت إمرته الى اعتناق هذا الدين ، وعلى الرغم من استدعائه الى بلاط تيمور وبذل الجهد فى ارتداده الى البوذية ، أبى الا التمسك بدينه الجديد ، فالقى به فى غياهب السجن ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة اهالى تانجوت الذين كانوا شديدى التعلق به » (١) .

وهكذا دخل هذا الشعب (الذى دوخ العالم الاسلامى كله ، وداس اطرافه بأقدامه ونعال خيوله ، والذى لم تتماسك امامه أى قوة) فى دين الله الاسلام فى بضع سنين ، وبدت هذه الحقيقة مرة أخرى ، واضحة جلية ، ان الاسلام لا يزال يملك اكبر نفوذ ، ويتمتع بأغرب موهبة فى تسخير الأرواح وكسب الأنصار والأصدقاء ، ان التتر لم يسلموا رسميا فحسب ، بل برز فيهم عدد كبير من العلماء والفقهاء والمجاهدين والدعاة والربانيين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدوا دورهم الثمين فى حماية حمى الاسلام فى ظروف دقيقة ولحظات عصيبة من التاريخ .

---

(١) الدعوة الى الاسلام – ص ٢٥٨ (رشيد الدين ص ٦٠٠ – ٦٠٢) .